سماء مليئة بالنجوم

قصة بقلم وليد حاج عبد

لعل كل شيء اصبح ينضح بالمرارة دفعة واحدة عندما ارتفع انين الناي الذي كان يمسك به احد القرويين ممن جلسوا معي لتناول الشاي في حضن شجرة الكينا العجوز في باحة المدرسة .. كانت المرارة من ذلك النوع الذي يحتبس في الحلوق ويلجم الحناجر فلا يستطيع احد البوح به او التعبير عنه ولا يدري مبعثه بالضبط ... اهو غناء ذلك القروي البسيط وآلهه الخفي الدفين الذي ينساب من فوهة الناي تعاريج من النغم .. أم ذلك الضوء الذي ترسله القرى الفلسطينية والمدن المطلة من جبل الجليل الشمالي والتي تسمى الان بالمستعمرات وتقع في مجال النظر ومتناول اليد ؟. اجل ربما كان ذلك كله قطعة من المشهد الصامت الكئيب . كانت العيون مشدودة بشكل غريزي باتجاه الضوء .. أقصد ضوء المستعمرات والطريق المعبدة الصاعدة بينها ابتدأت تلتمع فيها من حين لآخر بعض الانوار .. وبلغ النغم الذي يرسله الناي ارتفاعا سمعته القرية الصغيرة كلها والتي لا يزيد عدد بيوتها عن ثلاثين بيتا .. وفي هجعة الغروب تسللت الكآبة تحت الستار الاسود الذي بدأ ينشر ظلاله : كل القلوب حتى الماشية لمس اللحن المرير قلوبها الوحشية فوقفت كأنها تصغي لصوت غامض بعيد يخرج من اعماق الارض فانعدم فيها كل ما يدل على الحياة .

ولمعت على جبين القروي بعض حبات من العرق على ضوء قنديل الكاز بفعل الجهد وبقية حرارة النهار .. وغنى الرجل وكان غناؤه موجعا حقا ، غنى حكاية من تلك الحكايات التي تعمر القرى وتعشعش بين جنباتها واكواخها الطينية وتبقى ماثلة في اذهان الكبار والصغار يجترونها في احاديثهم ويبوح بها الناي في الليل فقط .

وازدادت القبة السماوية ظلاما بتقدم الليل فتوضحت فيها النجوم قناديل معلقة ترعش بالضوء ، وتبدت لعينيّ مجموعات واشكال هندسية معقدة من النجوم .. قلت محاولا استعراض معلوماتي الفلكية الضحلة ومحاولا الخروج من بوتقة اللحن الكئيب ومفتتما صمت الناي لحظات ، اجل قلت محدثا الرجال الملتفين حول طاولة الشاي :

ـ ذلك النجم .. اجل ذاك يدل دائما على الشمال ويسمى بنجم القطب ويقع في تشكيل من النجوم يعرف باسم ..

وهنا ندت من الشيخ الجالس الى جانبي ضحكة هازئة ..

قلت محاولا كبح جماح غضبي : ـ ما الذي تراه مضحكا في قولي يا حاج ؟

قال الشيخ بلهجة الواثق : ـ لست ادري كيف تغيرون الاشياء ايها المتعلمون وتسمونها بغير اسمائها !

قلت : ـ عجبا وما الخطأ في ما قلت واي اسم هو لذلك النجم حسب معلوماتك اذن ؟.

قال العجوز وهو يسحب نفسا من لفافته :

ـ سأقول لك ما الخطأ . ان جميع الرجال هنا وخاصة القدماء منهم يعرفون ابا عن جد أن ذاك النجم هو روح الشهيد عقبة .. وان تلك النجوم الثلاثة الضاربة الى الحمرة والتي تلوح بعيدة في الافق هم الشهداء الثلاثة ابطال معركة باب الواد وان ما من احد كان يراهم قبلها وما انقطعوا عن الظهور من بعدها .. آه يا بني ان لكل شهيد نجما يبقى يطوف في الافق وهكذا فان شئت اخبرتك باسماء البعض وان كنت لا شك اجهل اسماء الكثير الكثير .

قلت وانا لا استطيع ان اخفي دهشتي :

ـ اسماء غريبة حقا .. لم اسمع بذلك من قبل .

وعدت الى الصمت افكر في ما قاله العجوز اذ انني كنت ارغب في التخلص من خوف مبهم شعرت به يتحرك الى داخلي ويقبع هناك كقطعة من الثلج ! ذلك انه بالرغم من معرفتي لمدى تخريف العجوز وشائعات القرى فقد شعرت انني كمن لدغته افعى فقد استيقظ خوفي ولم اعد قادرا على كبح جماح القلق الذي استبد بي دفعة واحدة بعد أن كنت تشاغلت عنه قليلا ، ذلك ان مصير الرجال الاربعة الذين ودعتهم منذ قليل ليمضوا في مهمة فدائية داخل الارض المحتلة الواقعة على التخوم ، كان يقض راحتي ، خاصة ان كلمات احدهم ويدعى مازن لا زالت ترن في اذني

قلت اساله وانا احدق في عينيه احاول سبر اغوارهما :

ـ الا تخاف على حياتك يا صاحبي ؟

قال بهدوء وبرزانة فيلسوف لم اعهده بها :

ـ واي معنى للحياة والعيش ما دام الارض يعمرها الخنازل ؟

قلت : كيف ذلك ؟

قال : هل يستطيع احد ان يسمي حياة او عيشا ذلك العيش الذي نعيشه بين المخيمات .. الواحد يجوع اكثر مما يشبع ؟ يمر العمر كله ولا يعرف الفرح ليلة واحدة ، كيف يسعني أن اعيش يا اخي بين الاضواء وانا مهلهل الثياب ؟..

وصمت قليلا وهو ينفث دخان سيجارته ليعود فيكمل : انا اصغر فرد في المعمورة يستطيع بكل اسف ان يشتم انسانا بلا وطن ..

قلت وقد افحمني حقا وانا لا ادري كيف استطاع ان يقول ما قال وبمثل هذا التركيز والوضوح : حسنا هل تذهب مثلا وانت تأمل في العودة ؟ بودي لو اراك .

حدق في التراب ونبشه بقدمه وقال : لست واثقا .. لا اريد ان اكذب ولا يستطيع احد ان يدعي ذلك لكنني ربما كنت واثقا وبقدر اكبر من شيء واحد ..

ـ وما هو ؟

قال : ـ انني واثق من انني سأنفذ مهمتي وسترى ، ربما سترى من هنا ، طالما ان الليل نقي ، اثارها .

وكان هذا اخر ما قاله اذ مضى الشباب بعد ذلك لمهمتهم .

وقبل ان ينفض المجلس من حول شجرة الكينا بعد ان قارب الليل على الانتصاف .. استطعنا ان نسمع دوي الانفجار الذي وعدني به مازن .. وبدأ انتظاري له ولجماعته وكان المجلس قد انفض من حولي .. وبدأ انتظاري لمازن وجماعته ..

كانت عيناي على الرغم مني تحدقان في الظلمة باتجاه المستعمرات والانوار الكاشفة تلهث مسعورة في البحث عن الرجال وشعرت انني ارتجف في الليل بالرغم من اعتدال الطقس .. ومرت الساعات بطيئة ثقيلة محملة بشيء مرعب لا استطيع له تحديدا .. وبالرغم من ثقتي الكاملة بمدى تخريف الشيخ في كلامه عن النجوم فقد وجدت عينيّ تجوسان خلال الفراغ الهائل المضاء بملايين النجوم وعندما استطاعت عيناي ان تتبينا فجأة وكطلقة وسط الصمت الواسع نجما ضاربا الى الحمرة فوق مكان الانفجار خلت انني اراه للمرة الاولى شعرت بشيء بارد كالمدية يغوص في قلبي وبأن ركبتيّ تعجزان عن حملي وانا اتمتم في حمى التشاؤم المجنونة :

ـ لا .. انه كاذب ، الشيخ يخرف فيما يقول انه كوكب يكثر فيه النحاس .

واختنقت الدموع ..

دمشق

وليد حاج عبد